ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:07، العدد:02 (2023)، ص196-206

رحالة وجغرافيون مروا بالمغرب الأوسط

Travelers and geographers who passed through Central Maghreb

محمد شريف سيدي موسى
جامعة البليدة 02 (الجزائر)
Med.moussa062@yahoo.fr

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/10/14
تاريخ القبول:
2023/11/16

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الحركة العلمية
- ✓ حواضر المغرب الأوسط
- ✓ العصر الإسلامي
- ✓ التفاعل الثقافي

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية الحركة العلمية التي عرفتها حواضر المغرب الأوسط في الفترة المتأخرة من العصر الإسلامي الوسيط ما بين القرنين السادس والتاسع الهجريين الموافق للقرنيين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين. وكان تركيز بحثي على مدن بعينها اشتهرت بمؤسساتها العلمية وبنبوغ علمائها وبإنتاجها الفكري الغزير. وكان للرحلة العلمية في العصر الإسلامي الزاهر بالمغرب الأوسط أثراً بارزاً في عملية التفاعل الثقافي بين حواضره مثل بجاية وقسنطينة وتلمسان وسائر اقطار الغرب الإسلامي وحتى مع بلدان الضفة الشمالية للبحر المتوسط.

Article info

Received:
14/10/2023
Accepted:
16/11/2023

Key words:
- ✓ scientific movement
- ✓ Central Maghreb
- ✓ abundant intellectual output
- ✓ cultural interaction

Abstract:

This research paper examines the scientific movement that characterized the cities of Central Maghreb during the late period of the Islamic Middle Ages, spanning from the 6th to the 9th Hijri centuries, which correspond to the 12th to the 15th centuries CE. The research focused on specific cities renowned for their scientific institutions, the brilliance of their scholars, and their abundant intellectual output. The scientific journey during the flourishing Islamic era in Central Maghreb had a significant impact on the cultural interaction among its cities, such as Béjaïa, Constantine, Tlemcen, and various regions of the Western Islamic world, and even with the countries on the northern shores of the Mediterranean Sea

مقدمة

احتضن المغرب الأوسط حواضر علمية طيلة العصر الإسلامي لا سيما في الفترة الممتدة ما بين القرنيين السادس والتاسع الهجريين الموافق لـ –ق– 12–15م. أمثال بجاية وقسنطينة وتلمسان وورجلان التي اشتهرت بمؤسساتها العلمية. وبنبوغ كم هائل من العلماء وطلاب العلم في شتى علوم المعرفة من نقلية وأخرى عقلية. سواءً تعلق الأمر بالساكنة منهم أو بالوافدين من أقطار إسلامية وحتى أوروبية. **فمن هؤلاء الذين زاروا حواضر المغرب الأوسط. ما هي اهتماماتهم وإسهاماتهم العلمية. هل كان للرحلة العلمية دور في انتشار العلوم وشيوع المعرفة ببلاد المغرب الأوسط؟** ... تلكم جملة من الاستفسارات نحاول الإجابة عليها في مقالنا هذا.

إن الغرض الشائع من الرحلة لدى جمهور المغاربة زيارة الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج أو لطلب العلم، وقد يكون الدافع إلى الرحلة مزدوج الأغراض، بحيث يستغل الرحالة تنقلاتهم للقيام بعمليات التبادل التجاري وفي نفس الوقت يعهدون إلى تسجيل معلومات عن البلاد والشعوب التي يزورونها (العربي، 1994، صفحة 114).

ومن ثم تقديم حقائق كثيرة لوصف البلاد وبيان المسافات وغيرها. كما ارتبطت الرحلة بالجغرافيا على اعتبار أن الرحلة آنذاك تشكل السبيل الوحيد لمعرفة الجغرافيا، فشغف العرب والمسلمون بهذا العلم شغفا كبيرا. كان موقع بجاية الجغرافي همزة الوصل بين الأندلس وسائر إفريقية ومعبر أساسي لمرور الحجاج الأندلسيين والمغاربة نحو البقاع المقدسة، فاستقطبت بجاية طلبة العلم والعلماء ولا نستغرب مرور العديد من الرحالة العرب والمسلمين عبر المدينة، وخصهم أجزاء في كتاباتهم عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في بجاية.

1. الرحالة أبو عبد الله محمد السبتي

ومن الرحالة الذين زاروا بجاية في القرن السابع الهجري "**أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي**" الذي ولد ونشأ بمدينة سبتة عام سبعة وخمسين وستمائة للهجرة (الفهري، د، ت، صفحة 25)، وبها تلقى علومه الأولى ثم انتقل إلى حواضر الأندلس فطاف بأكبر وأشهر مدنها حتى أصبح فقيها وعالما له مشاركة في العديد من الفنون والعلوم، فرجع إلى مسقط رأسه وتصدر الإقراء والإفتاء والخطابة، طلبه السلطان المريني وقربه من مجلسه وجعله من خواصه خطيبا بالجامعين بمراكش وبفاس (الفهري، د، ت، صفحة 26).

هدفت رحلة ابن رشيد السبتي في المقام الأول إلى القيام بفريضة الحج حيث خرج من مدينة سبتة عام ثلاثة وثمانين وستمائة وعمره آنذاك سبعة وعشرين سنة، فقصد أولا المرية فاصطحب معه بعض أصحابه وركب البحر ونزل أولا بمدينة بجاية (الفهري، د، ت، الصفحات 31–32) فدخلها على ما يبدوا في نفس السنة ثم قصد بعد ذلك مدينة تونس حيث مكث بها لبعض الوقت، ومنها انتقل إلى الإسكندرية في رحلة بحرية، ودخل القاهرة عام أربعة وثمانين وستمائة، ومن هذه المدينة انتقل إلى دمشق فزار بعض حواضر الشام وواصل

طريقه صوب الحرمين والمدينة، وبعد أداء السبتي لمناسك الحج رجع إلى مصر فمكث ثانية في الإسكندرية حوالي عام خمسة وثمانين وستمائة، ثم ركب البحر إلى طرابلس الغرب ومنها المهدية وتونس التي وصلها في ربيع الثاني سنة ستة وثمانين وستمائة. وبعد استراحة بها اتجه صوب مدينة بونة، ومنها أخذ سفينة إلى مالقة فجالفي رندة والجزيرة الخضراء، وانتهت رحلته بمسقط رأسه في مدينة سبتة عام ستة وثمانين وستمائة (العربي، 1994، صفحة 168).

دون ابن رشيد رحلته في كتاب سماه "**ملء العيبة فيما اجتمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة**" (بن جدو، 1970، صفحة 90)، حيث صور المؤلف هذه الرحلة بجميع مراحلها ذهابا وإيابا إلى الحرمين الشريفين، وكان ابن رشيد في كل مرة يحل بمدينة من المدن يحرص على الاتصال بعلمائها (الفهري، د، ت، الصفحات 33-34) والأخذ عن مشايخها، وملاقاة الأعلام وزيارة الأعيان، ودرس وأخذ عن العديد منهم. وتعتبر هذه الرحلة من أوسع البرامج والفهارس العلمية لما اجتمع فيها من تراجم وأسانيد، لكن المؤسف له ضياع أجزاء من هذه الرحلة العلمية، وكل ما وصلنا من ملء العيبة هو الجزء الخاص الذي يحمل عنوان "**تونس عند الورود**" وهو الجزء الثاني الذي كتبه قبل وفاته بمدينة فاس (العربي، 1994، صفحة 171) سنة 721 هـ.

2. الرحالة والمؤرخ أبو عبد الله محمد العبدري

ومن أشهر الرحالة في القرن السابع أيضا "**أبو عبد الله محمد العبدري البلنسي**" الذي خرج سنة 688هـ/1289م (محمد، صفحة 217)، من بلاد السوس في المغرب الأقصى قاصدا حج بيت الله الحرام، وكانت بداية رحلته الطويلة بزيارة أهم مدائن المغرب الإسلامي مثل بجاية التي دخلها في السنة المذكورة وبهذه المدينة ذكر العبدري بعض الشيوخ الذين درس عليهم أمثال محمد الكناني الشاطبي ومنصور الزواوي المشادلي (العبدري، د، ت، الصفحات 124-131).

وواصل العبدري رحلته نحو تونس ثم طرابلس حتى دخل مصر ومنها رافق قافلة الحج لأداء الفريضة، فزار فلسطين ودخل القاهرة فالإسكندرية ومنها إلى بلاد المغرب، وتوقف مرة ثانية ببجاية قبل مغادرتها إلى تلمسان وفاس إلى أن بلغ حدود البحر المحيط بالمغرب الأقصى (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 367). وتجدر الإشارة أن العبدري اختار في رحلته طريق البر ذهابا وإيابا، وشرع في تدوين رحلته بتلمسان وكرسها بصورة كبيرة لوصف المدن الكبرى لإفريقية وبلاد المغرب الإسلامي، وتضمنت هذه الرحلة معلومات جغرافية غزيرة ووصفا دقيقا للعديد من المواقع والبقاع المختلفة التي عاينها مع تفاصيل وافية عن الآثار القديمة، وأخلاق السكان المحليين، لكن يبدوا أن الاتجاه الذي غلب عليه وجعله موضوعه الرئيسي هو الحديث عن العلماء الذين التقى بهم والذين تتلمذ عليهم عبر المحطات التي استوقفته أكثر من أمور أخرى.

وتميز عرض العبدري بالصدق مع بعض التكلف والإسراف في السجع وميله الكبير إلى الشعر إذ تضمنت رحلته عددا كبيرا من قصائده الشعرية وقصائد غيره (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 368)، وما

يمكن مؤاخذته عن العبدري أيضا هو تناقضه الصارخ حول بعض الأمور بجاية، فنراه أولا يذكر محاسن المدينة وسحرها ومواظبة سكانها على الصلاة وحبهم للعلم والعلماء حينما قال: "**وهذا البلد بقية قواعد الإسلام محل جلة من العلماء والإعلام ، له مع حسن المنظر طيب الخير، ومن الحصانة ووثاقة البنيان ولأهله من حسن الخلق والخلاق**"، ثم انقلب فجأة إلى النقيض فغير موقفه تماما وقال: "**ولم أر بها عالما وطلابا من الفضلاء وعفا رسم العلم عنهم حتى عاد طللا**" (العبدري، د، ت، الصفحات 24-25)، ورغم ذلك تبقى الرحلة المغربية التي ختمها المؤلف بقصيدة طويلة في وصف الطريق من أهم المصدر المغربية في القرن السابع ومصدر إلهام للمؤرخين والباحثين المتأخرين.

3. الرحالة والجغرافي ابن بطوطة

وجاء بعد العبدري الرحالة الشهير ابن بطوطة أبو عبد الله محمد الذي ولد بطنجة عام 704هـ (بن جدو، 1970، صفحة 91) /1304م، وبها نشا حتى بلغ سن الثانية والعشرين، فعزم على زيارة بيت الله الحرام مثلما أكده بقوله: "**وكان خروجي من مسقط رأسي يوم الخميس من شهر الله رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول ﷺ**" (بن بطوطة، 1965، صفحة 14).

ولم يكتب له العودة منذ ذلك التاريخ أي 725هـ إلى وطنه إلا بعد أكثر من ربع قرن حيث طاف بأهم حواضر المغرب الإسلامي مثل تلمسان ثم بجاية وتونس (ابن بطوطة، 1980، صفحة 33)، ثم انتقل إلى مصر والشام وفلسطين والعراق ومكث بمكة من عام 729هإلى 730هـ وتركها إلى إفريقيا الشرقية والخليج العربي ودخل الأقطار الشمالية من أسيا الصغرى وروسيا الجنوبية ثم زار الهند التي وصلها عام 734هـ حيث لقي رعاية كبيرة من طرف حكامها وأمرائها الهنود، وولاه أحد حكامها منصب القضاء واصطحبه معه في سفارة إلى الصين (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 423).

على أن ابن بطوطة عاود الرحلة في عام 748هـ/1347 ركب سفينة من الجزر الشرقية القريبة من الصين إلى ضفار بأقصى جنوب الجزيرة العربية وزار إيران والعراق ثم دخل مصر إلى أن وصل تونس عام 750هـ (C-DEFREMERY, 1979, p. 330) ومنها جال في أقاليم المغرب الأوسط فالأقصى في عهد السلطان أبي عنان (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 424)[4]، ثم سافر في رحلة جديدة نحو الأندلس وطاف بكورها العديدة لكنه لم يطل المقام وغادر شبه جزيرة ايبيريا ثانية واتجه إلى بلاد السودان.

زود ابن بطوطة المكتبة التاريخية بمعلومات هامة عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لكل الأقاليم التي زارها، وقص أخبار رحلته على السلطان أبي عنان الذي بدا شغوفا بقصصه وغرائب رحلته، فأوعز إلى أحد كتابه وهو "**محمد بن جزي الكلبي**" بتدوين هذه الرحلة، ربما لأن ابن بطوطة لم يحسن الكتابة بأسلوب جيد. وسماها ابن جزي "**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**" (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 426). إن الأسلوب الذي جاءت به الرحلة ثقيل نوعا ما فيه تكلف وذكر للأشعار دون مناسبة مع كثرة الخرافات والاستطرادات. ويرجع ذلك ربما لتأثر ابن بطوطة على ما يبدو بالقصص والكرامات والخوارق وإيمانه

بالمسائل المتعلقة بالأولياء (ابن بطوطة، 1980، صفحة 26). ورغم ذلك قدم ابن بطوطة معلومات جغرافية هامة وجديدة إلى ذلك العهد. ومما زاد في قيمتها أيضا أنها جاءت نتاج تجربته الشخصية والمحادثة ولم يجمع مادته من الكتب والدواوين. **فمن الذين زاروا بجاية في القرن التاسع للهجرة رحالة مشرقي، ومن هو يا ترى؟**

4. عبد الباسط بن خليل العالم والجغرافي المتميز

إنه عبد الباسط بن خليل الذي ولد في سنة أربع وأربعين وثمان مائة للهجرة بالشام حيث نشأ هناك (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 445). ثم انتقل إلى مصر حيث كان والده يعمل لدى المماليك فاهتم بنشأته وتعليمه حتى اشتد أزره. وبعد أن تلقى عبد الباسط جل علوم عصره راودته فكرة التعمق في بعض العلوم الطبيعية وفي مقدمتها الطب ودراساته. ولما كان المغرب الإسلامي وبجاية على الخصوص لا يزالان يحتفظان بشهرتهما في مجال تدريس الطب، فقد عقد عبد الباسط العزم على الرحلة وهو لا يزال شابا واتخذ غطاء لتجارة في ذلك. فركب البحر في سفينة جنوية من مدينة الإسكندرية عام ستة وستين وثمانمائة للهجرة، واتجه صوب طرابلس الغرب وبعد هنيهة ارتحل نحو تونس واستقر مدة في مدينة بجاية وبعدها زار كل من تلمسان ووهران (كرانشكوفسكي، 1963، الصفحات 445-446).

ومن المغرب الأوسط عبر إلى الأندلس فزار مالقة وغرناطة وغيرهما من الحواضر، وقفل راجعا إلى وهران التي دخلها ثانية عام ثمانية وستين وثمانمائة. كانت مدينة وهران آخر مدينة زارها في بلاد المغرب حيث منها ركب البحر قاصدا الرجوع إلى مصر التي وصلها في سنة إحدى وسبعين وثمانمائة للهجرة. ومارس عبد الباسط حياته الطبيعية والعلمية وأصبح بعد رحلته فقيها وعالما وتمتع بسمعة واسعة في فن الطب والتطبيب ودون رحلته تحت عنوان "**الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم**" (brunchwig, 1936, p. 7)حيث عالج فيها الفترة الوطنية من عام أربعة وأربعين وثمانمائة إلى عهده، وأولى عبد الباسط اهتماما خاصا لسير مشاهير الرجال وخاصة العلماء الذين التقى بهم في رحلته. كما أورد معلومات هامة عن الحياة الفكرية والثقافية ببجاية في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري الموافق لـ /15م.

حيث قدم معلومات قيمة وشهادات حية عن بعض العلماء والفقهاء مثل أبي القاسم المشدالي الذي قال عنه ما يلي: "ولقيته عام ثمانية وستين وأخذت عنه (brunchwig, 1936, p. 41) وعن عبد الرحمن الثعالبي الذي أدركته بمدينة الجزائر (brunchwig, 1936, p. 41)، وأخذت بتلمسان عن العالم "**أبي عبد الله محمد العقباني**"(brunchwig, 1936, p. 43) . ورغم شح مادة عبد الباسط وبساطة لغته في بعض الأحيان وفي بعض المواطن، أنه لا يمكن الاستغناء عن هذه الرحلة حيث تعتبر من المصادر الهامة التي تغطي جزءا هاما من تاريخ المغرب الإسلامي في تلك الفترة.

لقد صدق ابن خلدون في مقدمته: "**إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك: أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة: علما وتعليما ولقاء، وتارة :محاكاة وتلقينا بالمباشرة. إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاماً**

وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها وتفتحها". ويعد عبد الرحمان بن خلدون من أشهر العلماء والرحالة الذين أثرت فيهم بيئة المغرب الأوسط حيث استقر فيها فترة زمنية ليست بالوجيزة. ومارس التدريس والسياسة وبرع في التأليف ونالت مقدمته شهرة لا مثيل لها. فمن يكون الرجل وما هي المهام التي قام بها ابن خلدون في المغرب الأوسط.

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الحضرمي الإشبيلي التونسي، ولد في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة للهجرة في بيت عربي أصيل المشرق (عبد الرحمان، الصفحات 794-795) وتعلم عبد الرحمن بتونس وتتلمذ على كبار شيوخ عصره لا سيما أولئك الذين وفدوا على إفريقية مع الحملة المرينية، حيث التحق بأصدقائه بني مزني ببسكرة، وفي سنة أربعة وستين وسبعمائة للهجرة عبر مترجمنا إلى الأندلس ودخل غرناطة عند صديقه ابن الخطيب واضطلع عنده بمهام من جملتها السفارة إلى مملكة قشتالة. ونجح ابن خلدون على ما يبدو في أداء وظيفته. لكنه عزم على الانتقال إلى أرض العدوة فنزل بمدينة بجاية عام ست وستين وسبع مائة للهجرة.

ولقي هناك أحسن الاستقبال من طرف أميرها وأهل المدينة، ثم وُلي الحجابة والتدريس والخطابة بجامع القصبة واستبد ابن خلدون بشؤون الدولة والإمارة يعالج الفتن ويقوم بجمع الضرائب والجباية. وسنة بعد ذلك خرج عبد الرحمن للاستقبال الأمير الجديد لبجاية أبا العباس الحفصي صاحب قسنطينة، ثم أقر حاكم بجاية الجديد عبد الرحمن في منصبه إلى حين لكن هذا الأخير شعر بتغير الأمير نحوه فأستأذنه للخروج لبعض الأحياء المجاورة القريبة من بجاية وتوجه إلى الدواودة ومن هناك انتقل إلى بني مزني ببسكرة، مرة أخرى وبتلك المدينة بقي حوالي سنتين أي إلى غاية تسع ستين وسبعمائة، حيث طلبه السلطان الزياني أبو حمو موسى لتولي حجابته، فاستعفى عبد الرحمن وأرسل في مكانه أخاه يحيى وفي حدود سنة ست وسبعين وسبعمائة اعتزل ابن خلدون بقلعة بني سلامة عند بني توجين بالجنوب الوهراني حيث كتب مقدمته على الأقل وربما الأجزاء الأولى من كتابه العبر (عنان، د، ت، صفحة 188) ثم رجع إلى مسقط رأسه بتونس، وتفرغ للتدريس معتزلا الحياة السياسية.

وفي عام أربعة وثمانين وسبعمائة خرج عبد الرحمن قاصدا الحج وطاب له المقام بالمشرق وظل في القضاء والتدريس إلى أن توفي بمصر عام 808 هـ/ 1406م. لقد ترك لنا ابن خلدون تأليفه الجليل المعروف بكتاب "**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**". إن دراسة هذا الإنتاج العلمي لابن خلدون بدأت في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على يد بعض المستشرقين الفرنسيين وكان على رأسهم "**سيلفستر دي ساسي**" (1758 – 1838م) الذي نشر بعض أجزاء المقدمة (العبادي، 1978، صفحة 343) ثم جاء بعده أحد تلاميذه وهو البارون "**دي سلان**" الذي أصدر بين سنتي 1847 و1857م طبعة من تاريخ العبر ونشر كذلك السيرة الذاتية لابن خلدون (إبراهيم، 1978، الصفحات 90-91).

وبقيت هذه الترجمة حتى وقت قريب هي الطبعة الوحيدة والكاملة لترجمة المقدمة ثم توالت الطبعات فيما بعد. إن المقدمة هي الجزء الأول من كتاب العبر وموضوعاتها مرتبطة بنظرة عبد الرحمن لموضوع علم التاريخ وتفسيراته وتأويلاته، حيث يعتبر ابن خلدون أن أساس القضية التاريخية ليس هو تاريخ الأنبياء والملوك ولكن تاريخ المجتمع البشري الذي تحدده كيفية الوقائع وأسبابها (دلو، 1985، صفحة 22)، ولذلك جعل ابن خلدون للتاريخ جوانب ظاهرية وأخرى خفية، فالتاريخ الظاهر عنده هو أخبار عن الأيام والدول السابقة، والخفي هو نظر وتحقيق وتعليل دقيق للكائنات ومبادئها والوقائع وأسبابها، ويرجع ابن خلدون أخطاء المؤرخين السابقين إلى ما يلي (كاشف، 1983، صفحة 77) .

التشيع للآراء والمذاهب، الثقة بالناقلين والذهول عن المقاصد، الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع والجهل بطبائع العمران. لكن ما يؤسف له أن ابن خلدون لم يطبق هذا المنهج في كامل تاريخه العبر ما عدا في جزئيه السادس والسابع اللذين هما مصدران أساسيان لا يمكن الاستغناء عنهما لامتيازهما بغزارة المادة التاريخية والتعمق في البحث والمقارنة وما تضمنه من معلومات دقيقة حول تاريخ المغرب الإسلامي. ومن خلال ما عرضناه من حقائق تاريخية يبدو أن المغرب الأوسط كان منطقة استقطاب للعديد من العلماء وطلبة العلم مما يبرز أهمية المكان في الحياة العلمية في الفترة المدروسة .

وعلى هذا الأساس زار عدد معتبر من علماء مسلمين وغيرهم من الأوروبيين بلاد المغرب الأوسط وبرعوا في شتى أنواع العلوم في الفترة ما بين القرنين السادس والتاسع الهجريين الموافق لـ- 12 و15م. وتألقت حواضر مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة وغيرها وعدت من أشهر مدن المغرب الإسلامي والأندلس. ونقل أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري الأندلسي صاحب الحلة السراء تأليفه أثناء رحلته إلى المغرب الأوسط في القرن السابع الهجري الموافق لـ-13م. وكذلك فعل محمد العبدري البلنسي صاحب الرحلة الشهيرة والممتعة في شتى العلوم. واحتفى المغرب الأوسط في القرن الثامن للهجرة 14م بلقاء الرحالة والمؤرخ والجغرافي أبي عبد الله محمد الطنجي المعروف بابن بطوطة الذي طاف بعديد حواضرنا.

فأفاد الساكنة بعلمه الغزير واستفاد من علومها بشهادته الموثقة. وفي القرن التاسع للهجرة 15م قدم على حاضرة بجاية وغيرها عالم مشرقي التكوين ومصري الهوى. أنه العالم الجليل عبد الباسط بن خليل الرياضي الشهير. جاء الرجل في رحلة علمية للاستزادة في علم الحساب وسجل في رحلته تفوق الساكنة في تلك العلوم.

وكان علماء بجاية ويضرب بهم المثل في تلك العلوم العقلية منذ أن زار الحاضرة العالم الإيطالي الشهير ليوناردو البيزي. الذي نقل طرائق العد والصفر إلى إيطاليا. وأثرت التأليف التي تركها ذلك العالم تأثيرا مباشرا في نهضة إيطاليا وأوروبا فيما بعد (حماني، د، ت، صفحة 249).

فما هي الشخصيات العلمية والرحالة الجغرافيين الذين زاروا المغرب الأوسط مع بداية القرن العاشر للهجرة الموافق للقرن السادس عشر للميلاد؟

5. الحسن بن محمد الوزان من روّاد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية

ولد في مدينة غرناطة قبل سقوطها ببضع سنوات، ومن أشهر مؤلفاته كتاب "**وصف أفريقيا**" (الوزان، 1983، صفحة 50)، عرفت حياته بكثرة الترحال في كامل أرجاء أفريقيا، ووصل إلى أوروبا، لكن عندما قرر العودة إلى أهله في المغرب الإسلامي أسَرَه القراصنة، وقُدّم في روما هدية للبابا ليون العاشر الذي عمّده وأدخله المسيحية للاستفادة من معارفه وعلومه إبان عصر النهضة الأوروبية.

ومع اشتداد سطوة وجبروت الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، فرّت عائلة الوزّان إلى فاس كحال كثير من الأسر الموريسكية، حيث نشأ وترعرع ليون الأفريقي (الوزان، 1983).

وعلى الرغم من حداثة سنّ الحسن الوزان آنذاك، فإن والده كان يصطحبه إلى بعض المهمات والرحلات لجمع الضرائب من النواحي والمدن، وقد جعلته تلك الأسفار شغوفا بعلم الجغرافيا ومولعا بالترحال منذ صغره.

تتلمذ الحسن في جامعة القرويين على يد كبار علمائها، فبرع في علوم اللغة وآدابها والعقائد والفقه والتصوف والتفسير والقراءات والحديث والسير والحساب والفلك والمنطق، وغيرها من العلوم التي كانت تدرس آنذاك بجامع القرويين، إلى جانب رحلاته مع أبيه وشغفه بالترحال وعلم الجغرافيا (الوزان، 1983).

أول دخول له إلى أفريقيا كان من خلال رحلة صحب فيها عمه إلى مدينة تمبكتو في مالي، وفق تأكيد المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي في كتابه "**تاريخ الأدب الجغرافي العربي**" قبل أن يخصص الوزان كتابه "وصف أفريقيا" لرصد ما شاهده في القارة السمراء، ومن ثم أصبح مؤلفه مرجعا للعرب والأوروبيين في ذلك الشأن (كرانشكوفسكي، 1963، صفحة 368).

عندما اكتملت عند الحسن صورة لجغرافيا أفريقيا لم يكتف بما حققه، بل تعداه لاستكمال باقي رحلاته خارج القارة، فذهب إلى حاضرة السلطنة العثمانية الأستانة (إسطنبول)، وسنه 22 عاما تقريبا، فعد من رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية والإسلامية.

يبدو أن حسن الوزان بدا في تأليف كتابه وصف إفريقيا سنة 1520، حينما أدرك أن رحلاته آن لها أن تنتهي، وأن العودة إلى الأهل والديار في بلاد المغرب صارت ملحة وضرورية. ومن أجل ذلك أبحر من تونس باتجاه المغرب، لكن قراصنة القديس يوحنا اعترضوا سبيل السفينة قرب جزيرة جربة في الجنوب التونسي، واقتادوه أسيرا إلى نابولي بغية تقديمه هدية إلى البابا ليون العاشر في روما (الوزان، 1983، صفحة 50).

وصل الوزان إلى روما، وحين التقى به البابا العاشر أدرك هذا الأخير أنه أمام عالم قدير وجغرافي بارع، فتغيرت العلاقة بينهما وزالت صلة الأسير بالسيد، وقرر البابا الإفراج عنه وتعميده وعدّه مسيحيا؛ لتسهل عليه الاستفادة منه. في تنظيم وإمداد حملة العسكرية جديدة ضمن سلسلة الحروب الصليبية. فالرجل لديه معلومات جغرافية، هامة وخرائط مضبوطة لأهم الطرق والمسالك للعالم الإسلامي وحتى الإفريقي في ذلك

الوقت. وليس للحسن الوزان غير الخضوع وتقديم المعونة المطلوبة لقداسة البابا ومن ورائه المجمع الكنسي المسيحي الكاثوليكي بروما (الوزان، 1983).

ومما ساعد حسن الوزان في التأقلم بسرعة في الحياة المسيحية طفولته المبكرة في غرناطة، مما سمعه وتعلمه من عائلته، أثناء مخالطة المسيحيين هناك. فقربه البابا ليون العاشر إليه، واستفاد من خبراته في تعليم اللغة العربية للأوروبيين، من أجل ترجمة التراث الفكري والحضاري العربي الإسلامي.

أشرف البابا ليون العاشر بنفسه على مراسم تعميد الحسن الوزان، وأعطاه اسما جديدا صار هو يوحنا الأسد الغرناطي الإفريقي. إلا أننا مترجمتنا الرحالة الأسير يحن ويتشوق لأهله وبلاده وديانته الإسلامية. حيث ختم كتابه "**وصف أفريقيا**" باسم العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي المدعو من قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي (الوزان، 1983).

علّم ليون الأفريقي اللغة العربية والجغرافيا لنخبة رجال الكنيسة في روما ونابولي، وذاع صيته في مدرسة بولونيا بين طلبتها وعلمائها الذين ساهموا فيما بعد في بروز النهضة الأوروبية. حيث كانت الجمهوريات الإيطالية سباقة في احتضان علوم العصر ورقيها.

ويبدو أنه بعد موت البابا ليون العاشر سنة 1521، ضاقت السبل بليون الأفريقي وفقد حظوته السابقة. واضطر للعيش عند أحد القساوسة يدرس اللغة العربية، ويترجم العديد من المؤلفات إلى اللغة اللاتينية.

واللافت للانتباه اختفاء الحسن الوزان عن الأنظار في إيطاليا. ويبدو أنه غادرها إلى تونس مع منتصف القرن العاشر للهجرة الموافق للنصف الثاني من القرن 16م ليستعيد ديانته السابقة الإسلامية ومقومات شخصيته المغربية الإسلامية (الوزان، 1983).

يعدّ كتاب "**وصف أفريقيا**" أبرز مؤلفات الحسن الوزان، وقد أتمه سنة 1526م في مدينة روما، وهو عبارة عن مزيج من مشاهداته الخاصة وما نقله عن بعض المؤرخين والجغرافيين، كابن خلدون والبكري والقيرواني وغيرهم كثير (الوزان، 1983). وتناول فيه تاريخ وعادات شعوب إفريقيا، وخاصة بلاد المغرب، وجغرافياتها. وقيد ذلك عبر قرون وسنوات طويلة، وأصبح كتاب ليون الإفريقي من أكثر المؤلفات إقبالا من طرف الأوروبيين ترجمة وطبعا ونشرا.

حيث اهتم به العالم الإيطالي راميزو ونشره سنة 1550م اعتمادا على نسخة مخطوطة بيد ليون الأفريقي، ونفدت طبعته بسرعة كبيرة فأعاد طبعه ونشره مرات أخرى مما يوضح الأهمية الكبيرة لكتاب وصف إفريقيا في تلك الفترة.

وللحسن الوزان مؤلفات أخرى، خلفها خلال وجوده في أوروبا، تتمحور حول المسلمين وبلدانهم ولغاتهم. وتوجد لغاية اليوم مخطوطا ت في مكتبة الإسكوريال بإسبانيا، في التراجم باللاتينية، عرّف فيها الحسن الوزان بعلماء مسلمين في فنون نقلية وعقلية من أطباء وفلاسفة وغيرهم وبعد مسيرة حافلة انقطعت أخبار الحسن

الوزان بتونس وتوفي على ما يبدو سنة 1552م على إن ما يهمنا في هذه الورقة البحثية كيف تناول ليون الإفريقي وصف المغرب الأوسط ومدنها في تلك الفترة مع بداية القرن العاشر للهجرة الموافق للقرن 16م.

6. حسن الوزان ووصفه لمدن المغرب الأوسط

يذكر الحسن الوزان أن الإسبان احتلوا مدينة وهران سنة 1509م (الوزان، 1983، صفحة 50) توجهت أنظارهم نحو مدينة بجاية التي كانت لا تزال تحافظ على بعض ملامح ازدهارها الاجتماعي والثقافي، وبين الفينة والأخرى يقوم بحارتها بعمليات بحرية ضد المسيحيين بنواحي إسباني وأرسل أميرها جيشا لمساعدة أهالي وهران سنة 1505م للتصدي للإسبان في ثغر المرسى الكبير (كريخال، 1989، صفحة 377). وبعد الفراغ من احتلال هذا المرفأ الهام قاد بيدرو نفارو(Pedro Navaro) حملة عسكرية نحو بجاية. ووجه أسطوله البحري وعلى متنه أكثر من عشرة آلاف جندي وعدد كبير من قطع المدفعية. أرسى الأسطول بالساحل في بداية شهر جانفي من سنة 1510.عمد الإسبان أولا بالقصف المدفعي للمدينة ثم تم الإنزال البري واشتبك البجائيون مع الإسبان طيلة عشرة أيام، كانت في النهاية الغلبة للإسبان الذين دخلوا المدينة واضطر السكان اللجوء إلى الجبال المحيطة بالمدينة والتحصن بها. بينما لجا الإسبان إلى التحصن ببعض القلاع، لاسيما تلك المطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

بالإضافة إلى المعلومات القيمة التي قدمه الحسن الوزان حول ظروف احتلال مدينة بجاية في العهد الحفصي. وصف أيضا أحوالها الاجتماعية حيث قدر عدد ساكنتها بأكثر من عشرة ألاف نسمة. وكثافة مميزة بالرجوع الى تعداد القاطنين بالمدن والحواضر في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ المغرب الأوسط.

كمان المؤرخ الاسباني مرمول كربخال الذي كتب عن مدينة بجاية بعد الحسن الوزان ذهب حذوه في وصفه للحياة الاجتماعية والثقافية في المدينة وفي تطرقه أيضا لظروف احتلالها من طرف الإسبان.

خاتمة

لعل ما يمكن استنتاجه من خلال هذه الورقة البحثية أن بلاد المغرب الأوسط بجل حواضره عرف نهضة علمية تضاهي تلك المتواجدة في المشرق الإسلامي ومدن الأندلس.

قد لا تخلو حاضرة من المغرب الأوسط من مؤسسات علمية كالمساجد الجامعة والمدارس والمكتبات العامة ناهيك عن المساجد والكتاتيب.

بحكم الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الأوسط كهمزة وصل بين الغرب الإسلامي ومشرقه فإن حواضره استقطبت علماء من الكعب العالي في شتى علوم المعرفة.

نبوغ عدد كبير من علماء المغرب الأوسط في فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية إذ ساهموا بشكل كبير في الحضارة الإنسانية.

تفاعل الأنظمة السياسية في بلاد المغرب الأوسط وتدعيمها للحركة العلمية مما ساعد على رقي مختلف العلوم النقلية والعقلية.

تمايز بين علوم وأخرى لدى طلاب العلم والعلماء حيث تشير الدراسات المتخصصة إلى سيطرة العلوم الدينية والأدبية على غيرها من العلوم التجريبية مع نهاية العصر الوسيط الإسلامي في مدن المغرب الأوسط.

قائمة المصادر والمراجع

1-C-DEFREMERY **.(1979) .Voyage d ibn battuta**; texte arabe accompagne d une traduction.préface et notes de vincent Monteil . collection Unesco.représentatives .(المجلد 4) paris: Anthropos.

2-Robert brunchwig .(1936) .**deuxrecits de voyage inedits en afrique du nord aux 15siecl**e.abdelbassit hallil et adome .paris: institut d'etude oriontals .la rose editeurs .

3- ابن بطوطة **ورحلاته**. (1980). تحقيق ودراسة وتحليل حسين مؤنس. القاهرة: دار المعارف.

4- ابن خلدون ، عبدالرحمان. **التعريف**.

5- إبن رشيد الفهري. **ملئ العيبة بما اجتمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**. (الإصدار ج2).

6- أبو عبد الله محمد بن بطوطة. (1965). **تحفة النظار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار**. بيروت: دار صادر للطباعة و النشر.

6- أحمد حماني. **عباقرة تزهى بهم عواصمنا الصنهاجية**.

8- أحمدمختار العبادي. (1978). **في تاريخ المغرب والأندلس** . بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر .

9- إسماعيل العربي. (1994). **دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

10- اغناطيوس كرانشكوفسكي. (1963). **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**. (الإصدار طبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر). (الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، المحرر) القاهرة.

11- البلسني محمد العبدري. **الرحلة المغربية**. كلية الآداب الجزائرية.

12- الحسن الوزان. (1983). **وصف إفريقية**. ترجمة محمد حجي و آخرين (المجلد 1). بيروت: دارالغرب الإسلامي.

13- برهان الدين دلو. (1985). **مساهمة في إعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي**. بيروت: دار الفرابي .

14- بن جدو أحمد. (1970). **الرحلة في طلب العلم**. (جامعة الجزائر، المحرر) مجلة كلية الآداب (2).

15- بن جدو أحمد. (بدون تاريخ). **محمد العبدري البلسني**. الرحلة المغربية. كلية الآداب الجزائرية.

16- بن مخلوف محمد. **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** (المجلد ج1). بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

17- رضوان إبراهيم. (1978). **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**. ليبيا وتونس: الدار العربية للكتاب .

18- سيدة إسماعيل كاشف. (1983). **مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه**. بيروت: دار الرائد العربي .

19- عبد الله عنان. (بلا تاريخ). **ابن خلدون ببجاية**. (مجلة الأصالة، المحرر) (19).

20- مرمول كريخال. (1989). **إفريقيا**. ترجمة محمد حجي وأخرين (المجلد 2). الرباط: دار المعرفة للنشر والتوزيع.